الرياض

حروف و افكار

الأمـيـر عبدالله يخـاطـب العقـل الأمريكـي

منح الصلح

من قواعد التهذيب الصيني أن الكلام ينبغي أن يكون باستمرار عملية رفع مستمر لمن تخاطبه أو تجالسه أو تعامله، في مقابل عملية خفض وتهوين من ذاتك. فإذا جرى تقصير في أي من العمليتين، فإنك مذنب غير جدير بعشرة الآخر أو مجرد التعامل مع.

لا يكفي للمضيف على سبيل المثال أن يرّحب بضيفه فيقول له: أهلاً وسهلاً، بل لا يكفي أن يشكره على زيارته ويشيد بفضله وصفاته، وإنما يجب لاكتساب صفة التهذيب أن يرتد المضيف على ذاته، فيكيل لنفسه كل أصناف التحقير، كأن يصف بيته بالكوخ الحقير ومنزلته بالضعة غير المستحقة لزيارة الكرام. بل إن يتوسع المضيف فينوه بالفارق في المقام بينه هو صاحب البيت العادي وضيفه الرفيع الشأن. فإذا لم يتبع المضيف هذه الطقوس بشكلها الكامل، فهو إذاً وقح ومعتد وغير عارف بالأصول.

فالتهذيب كي يكون تهذيباً في البروتوكول الصيني هو كرم مع الآخر وتقتير على الذات.

تريد إسرائيل من العرب أن تكون عملية تخاطبهم معها على الطريقة الصينية، فينسى العرب ذاتهم لتكون للذات الإسرائيلية كل الحقوق والتسليم لها بكل الأحلام التي خطرت ليهودي منذ ثيودور هرتزل.

يذكر الكثيرون ممن عاصروا مقتل رئيس حكومة إسرائيل الأسبق إسحق رابين على يد يهودي عنصري متطرف، كيف وقف العالم يتابع عبر التلفزيونات تفاصيل جنازته المتميزة بعدد القادة الغربيين المشاركين فيها، وقد لبسوا بهذه المناسبة القبعة اليهودية التاريخية "القلنسوة"، وفي مقدمتهم الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون.

عكست هذه الجنازة في حينها حجم المساندة الدولية لإسرائيل، وربما أريد لها أن تكون رسالة من قبل السياسة الدولية إلى العرب.

لاشك أن تأييد شارون الآن أكثر كلفة على الغربيين من حرصهم على تكريم رابين. وهم لا يجهلون صعوبة تسويق شارون، لا عند العرب فقط، بل عند الإسرائيليين أنفسهم. غير أنهم واقعياً يؤيدونه ضد الفلسطينيين وضد العرب. وسيكون هذا مستمراً حتى يستطيع العرب أن يخلقوا واقعاً جديداً سياسياً أو حربياً لا يترك للإسرائيليين إلا الرضا بتسوية قائمة على أساس دولتين ، واحدة للفلسطينيين والثانية للإسرائيليين.

مازالت الناس تتحدث في كل مكان عن الواقعة والموقف الهامين اللذين جاءا عن لسان ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز على قلم الصحافي الأمريكي اللامع توماس فريدمان في كبرى الصحف الأمريكية "نيويورك تايمز."

فالقمة العربية محدد موعدها يومي 27و 28من آذار (مارس). وقد اكتسبت القمم العربية بسبب مواقف ولي العهد السعودي فيها إلى حد بعيد أهمية مستعادة بعد أن كاد الكلام المعاد والمكرر على الطريقة التقليدية يطويها.

فالناس أصبحت تتوقع من القمم بسبب طبيعة الظرف ما يتجاوز في الأهمية حتى أثر القمم العربية المشهورة كقمة اللاءات الثلاث في الخرطوم، وكقمة فاس، اللتين كان الموقف السعودي فيهما شديد الأهمية، بل كان البوصلة والوزن المرجح. ذلك أن الموضوع الآن هو فلسطين، هل ما زال لها حساب، أو تكون إسرائيل قد رجحت جذرياً إلى أمد غير منظور.

قد يكون تصريح ولي العهد السعودي الأخير أحد التصريحات العربية ذات الدوي والمصداقية الأكبر التي كانت لمسؤول عربي منذ زمن بعيد، لأهميتها الذاتية ولأهمية قائلها والظرف الذي قيلت فيه والخدمة الإعلامية الذكية وذات الحرفية العالية التي وفرّها لها أحد الصحافيين الأمريكيين الألمع والأدق. فقد نقل فريدمان عن الأمير عبدالله أنه أعد خطاباً كان ينوي إلقاءه في القمة العربية في بيروت يقترح فيه "انسحاب إسرائيل من كل الأراضي المحتلة بما فيها القدس تطبيقاً لقرارات الأمم المتحدة في مقابل تطبيع كامل للعلاقات بيننا"، إلا أنه غيّر بسبب أعمال العنف التي مارسها شارون.

بدقة ومسؤولية روى فريدمان الذي كان يزور السعودية أنه. كتب مقالاً في شباط اقترح فيه أن يقوم الأعضاء الـ 22في جامعة الدول العربية في قمة بيروت بتقديم اقتراح بسيط وواضح إلى إسرائيل يدعو إلى انسحابها الكامل إلى خطوط الرابع من حزيران 1967وإقامة دولة فلسطينية مقابل علاقات ديبلوماسية كاملة وتطبيع تجاري. وأضاف فريدمان أنه استغل مناسبة عشاء مع الأمير عبدالله لطرح هذه الفكرة، فسأله ولي العهد السعودي والدهشة تعلو وجهه "هل تسللت إلى مكتبي. إن سبب سؤالي هو أن هذه الفكرة بالتحديد في ذهني، انسحاب إسرائيلي كامل من الأراضي المحتلة طبقاً لقرارات الأمم المتحدة، بما في ذلك القدس، مقابل تطبيع كامل للعلاقات". وقال الأمير عبدالله "لقد وضعت مسودة خطاب بهذه الخطوط، وكنت أفكر في إلقائه أمام القمة العربية ومحاولة حشد العالم العربي بأكمله خلفه. الخطاب كُتب وهو في مكتبي، لكنني غيّرت رأيي إزاء إلقائه عندما رفع شارون العنف والقمع إلى مستوى غير مسبوق."

وأضاف ولي العهد السعودي "إذا رفعت سماعة الهاتف الآن وطلبت من أحدهم أن يقرأ لك الخطاب، ستجده مطابقاً لما كنت تتحدث عنه. أردت أن أجد طريقة لأوضح للشعب الإسرائيلي أن العرب لا يرفضونهم أو يزدرونهم. لكن الشعب العربي يرفض ما تفعله قيادتهم بالفلسطينيين وهو غير إنساني."

وسأل فريدمان الأمير عبدالله عن مصير خطابه إذا اتفق الفلسطينيون وإسرائيل على وقف إطلاق النار قبل القمة، فأجاب "دعني أقول لك إن الخطاب مكتوب، وهو ما يزال في مكتبي."

مما يجعل هذا الكلام هاماً بصورة خاصة أن فريدمان يقول إنه حصل على موافقة مسبقة من مكتب الأمير عبدالله على نشر الاقتباسات التي أوردها على لسانه. وأضاف فريدمان أن الأمير عبدالله بدا وكأنه يشير إلى انه إذا أخذ الرئيس الأمريكي جورج بوش مبادرة جديدة تجاه السلام في الشرق الأوسط، فإنه وقادة عربا آخرين مستعدون للحذو حذوه.

في شفافية كاملة خاطب الأمير عبدالله لا العقل الأمريكي الرسمي والشعبي فقط، بل العقل الباطني الأمريكي أيضاً المتفاعل بغضب شديد مع هجمات 11أيلول والراغب لأسباب تاريخية مغروسة في النفس أن يضع الإسلام والسعودية والعرب وابن لادن في خانة واحدة. وكان لابد للعرب من أن يتعاملوا بدقة شبه طبية مع هذا العقل الباطن الأمريكي. فجاء الأمير عبدالله يفعل ذلك مستخدماً المصارحة والصراحة والوضوح الكامل وسائل لتوصيل رسالته هذه بروحية تتجاوز النسق السياسي العادي في تناول مثل هذه الموضوعات.

لعل أكثر ما يضمن فاعلية هذا الكلام هو نقص المصداقية في شخص شارون حتى بالنسبة لأنصار إسرائيل داخل أمريكا. إذ المعروف أن رابين كان سفيراً لإسرائيل في الولايات المتحدة وكوّن لنفسه هناك صورة إيجابية حتى اعتبره يهود أمريكا رجلهم في إسرائيل وغير إسرائيل. وكانت صورة شارون تبرز باستمرار في الأوساط اليهودية الأمريكية كنقيض بشع ضمن ثنائية اعتاد عليها "اليهودي الصغير" في المجتمع الأمريكي، فبقدر ما أحاطت النصاعة بصورة رابين، أحاطت الظلامية بصورة الآخر.

ودخل شارون بشكل سلبي في ذاكرة اليهودي الأمريكي منذ اجتياح إسرائيل للبنان عام 1982حين لعب وزير الخارجية الأمريكية الجنرال هيغ يومذاك دوراً في تسهيل دخول الجيش الإسرائيلي ومعه شارون إلى لبنان، ثم ظهر بعد ذلك فشل الحملة والخطأ الكبير الذي ارتكبه وزير الخارجية الأمريكي في ذلك الوقت ودور شارون فيها.

كان الغضب اليهودي - الأمريكي على شارون مقلقاً له لسنوات طويلة، حتى بعد أن اضطر من أجل تحسين صورته إلى أن يذهب إلى الولايات المتحدة ويقيم دعوى لدى محكمة هناك من أجل محو التهمة التي وجهت له في لبنان وترددت أصداؤها عالمياً بأنه مخطط لمجزرة ذهب ضحيتها آلاف المدنيين. وعلى الرغم من أن شارون استطاع أن ينال هناك حكماً بتبرئة نفسه من الاشتراك في المجزرة، فإن صورته بقيت سلبية لدى اليهود الأمريكيين ذوي النفوذ، لا في الولايات المتحدة فقط، بل في إسرائيل أيضاً.

وكانت صورة شارون تزداد سلبية باستمرار في نظر اليهودي الأمريكي بصورة خاصة كلما برزت صورة رابين حياً وميتاً.

إن الذعر الذي اقترن فيه اسم ابن لادن بالارهاب لم يُفد كل شخص عُرف عنه التطرف ونذكر الكلمة الشهيرة التي قالها وزير الخارجية الأمريكي السابق وارن كريستوفر على إثر حادثة الداوويين في ميتشيغن، حيث دفع الهوس الديني مجموعة منهم إلى الانتحار الجماعي، وهي أن التطرف مقيت سواء كان مسيحياً أو كان مسلماً أو يهودياً، فهو مرفوض في كل الحالات.

ولا ننسى أنه إذا كان بن لادن أصبح في الولايات المتحدة الرمز الأوضح للارهاب، فإن هذا لم يبيّض صفحة ارهابيين آخرين معروفين جيداً في الولايات المتحدة، سواء كانوا في دين بن لادن أو كانوا مسيحيين أو يهوداً.

هذا إذا أضفنا إلى أنه من المعروف أن فئة الأكاديميين الأمريكيين بصورة خاصة عُرفت منذ زمن بعيد بنفرتها من العنصريين على مختلف أديانهم وألوانهم. ولعل هذه الفئة تسند في الصحافة والإعلام الأمريكي عادة، بل تحمي، الإعلاميين الأمريكيين المتسمين بخط حرفي وحيادي. وفريدمان من ذوي الشعبية في هذا الوسط، ومعرفته المتزايدة في الشؤون العربية تزيد من وزنه وسمعته في عالم الإعلام الأمريكي المؤثر بجبروت في كل مكان في العالم.